الاسلام
في ضوء البحوث النفسية الحديثة
— ٢ —

للدكتور محمد الهبي
أستاذ الفلسفة الاسلامية بكلية أصول الدين

وليست وحدة الله في الأسلام هي وحدها أمارة هنا على رقي الاسلام — جريا على مقاييس الرقي التي وضعها الباحث النفسي استنباطا من الموازنة بين الطفولة الانسانية والبلوغ الانساني — بل مطالبة الاسلام كذلك بوحدة الجماعة الانسانية عن طريق محو الفوارق ، أو إضعافها على الأقل ، التي توزع الناس إلى شيع وطوائف ، سواء أكانت هذه الفوارق تتصل بالجنس والقبيلة أو بالعوامل الجغرافية أو الاجتماعية أو الثقافية ... أو غيرها . إذ من لوازم خصائص إدراك الطفل — وكذا الانسان البدائي — على نحو ما أشرنا من ارتباطه بالمحسوس تقيد صاحبه بالمحسوس الذي في محيطه ، لا يوليه الأفضلية فحسب، بل يهبه مزايا الوجود كله ، إذ الوجود في واقع الأمر عنده هو ذلك المحيط الذي يعيش فيه .

وعلماء الاجتماع — بالقياس على هذا — يصفون شعبا من الشعوب بالبدائية إذا كان متكونا من طوائف أو قبائل تقف كل طائفة أو كل قبيلة عند حد وجودها الخاص لا تتجاوزه إلى ما فوقه من معنى الوطن أو الدولة ، إذ الإدراك عند مثل هذا الشعب لم يخترق بعد تلك الحجب الظاهرة التي جعلت منه طوائف أو قبائل .

٢ — الوجدان :

تتجاوز الآن الجانب الأدراكي للانسان في مرحلة طفولته الأولى إلى جانبه الوجداني . نراه في هذه الناحية أيضا يقف عند حد المحسوس : فانفعالاته التي تتنوع إلى لذة وألم ، والتي يعبر عنها مرة بالبشر والتهلل أو الضحك كثيرا وأخرى بقبض أسارير الوجه والحزن أو البكاء كثيرا ، ترجع إلى ما يدركه مما حوله إدراكا حسيا فحسب: فهو يفرح بلون الدمية التي يلعب بها لا بقيمتها الذاتية ، ويتودد لزميله في ليونة وبشر ليلعب بلعبته أو ليفوز بها لا بما يدركه في الزمالة أو الصداقة من معنى يربط أحد الزميلين بالآخر ويجعل كلا منهما يسر للقاء الآخر أو التحدث إليه . وهو يحزن — وكثيرا ما يبكي — عند مفارقته لزميله ولكن ليس لما يوجبه معنى الزمالة عند الفرقة بل لفقده لعبة الزميل التي كان يلعب بها في حضرته .

فإن في كثير من الأزواج حالات تدفع الزوجات كارهات إلى أن يرتدعن في حمأة الرذيلة .

أما قولك إن المرأة المتعلمة كالثعلب فرأي تنزّى عن الحقيقة ، لأن العلم دريئة تتقنع المرأة — دائما — من حبائل الرجل، وعزة تسمو بها إلى الترفع والإباء ، وحصن يحميها شر المكيدة الخادعة . وأنت تعلم أن المرأة المتعلمة صعبة المراس شديدة الحفاظ على حين أن المرأة الجاهلة سهلة المكسر ليّنة المجس .

والرأي عندي أن يصبر الرجل فستجبر الأيام الكسر وترأب الصدع ، وعلى الزوج أن ينصح الزوجة في هدوء وبياتها في رفق ثم يسدل على الماضي ستاراً كثيفاً من النسيان . ولا ريب عندي في أن الزوجة ستسعى جهدها إلى مرضاة الرجل وتتوب عن الغي وتستغفر عن الزلة، ثم تبدأ حياة جديدة فيها الاستقامة والاستقرار وفيها الإخلاص والوفاء .

• • •

وكتب الأستاذ عمر عودة الخطيب رأيه في العدد ٨٦٩ من «الرسالة» وهو ينتهي إلى ما انتهى إليه من قالوا بفراق الزوجين

• • •

وقرأ صاحبي ما كتب أصحاب الرسائل ، فنظر إلى نظرات ثم أطرق وقال وكأنه يحدث نفسه ... فاذا قال ؟

فاضل محمود حبيب

تستهويه الحلوى ولكن لا يغريه التبشير بالجنة ، ويخيفه العقاب المادى كالضرب أو الحرمان ولكن لا ترهبه الخشية من الله . فرحه وتألمه إذن لما يبدو من الشيء لا من ذات الشيء وجوهره :

(ا) فوجدانه مادى ، لا يثيره إلا ما هو مادى . ولذته وألمه ما ديان مرتبطان أشد ارتباط بالشيء المـــادى ؛ بما يرى فيه ، أو يتذوق منه ، أو يلعب به ... الحصول عليه يسبب لذته والحرمان منه يسبب الألم عنده .

حياته هى فى الأكل والشرب والاستمتاع بالمتع الحسية . لا يعرف من الحياة إلا لونا واحدا هو هذا اللون . أما انقسام الحياة إلى دنيا وعليا ؛ إلى وخيصة وسامية ؛ إلى حياة الماديات وحياة المثل والمعنويات فلم يدركه بعد . لم يصل بعـد إلى لذة معنوية وشقاء معنوى .

(ب) كذلك يغلب على وجدانه طابع التطرف وعـــدم الاعتدال : فكثرة حركة الطفل ونشاطه فى هـذه الحركة عند الفرح ، وكثرة بكائه أو شدة صياحه عند الشيء المخيف المرعب تعبر عن هذا التطرف فى درجة الوجدان فى هذه المرحلة .

والانسان البدائى كذلك يثيره من الشيء مظهره المادى : يندفع نحو كبير الحجم أو بارق اللون فى بشر وسرور ، ويبكى إن لم يول هربا مما لم يعهده من قبل .

لا يعرف الجزاء بنوعيه إلا المادى منه ، ولهذا يسير المستعمرون بالجهات المتأخرة فى الحضارة فى معاملة أهل مستعمراتهم من البدائيين طبق هذه الحقيقة النفسية : فإذا أنعموا على إنسان منهم أنعموا عليه بزاهى اللون أو عظيم الحجم مما يلبس أو يؤكل . ونرى لذلك أن أكثر هداياهم إلى الزعماء هناك عبارة عن تيجان من الزجاج الملون يجمع بين كبر الحجم وبريق اللون . كما أن عقابهم ينحصر فيما يؤلم ألما ماديا كالضرب أو الحرمان من الأكل مثلا . أما قائمة الشرف وكذا القائمة السوداء مثلا فلا تعرفان كضربين للجزاء عند البدائيين .

وعبادة هؤلاء — والعبادة مظهر من مظاهر الوجدان — [1] تتمثل فى تقديم القرابين المادية لمعبوداتهم مما يؤكل أو يشرب فى بيئتهم عادة . بل أساس تخيرهم للمعبود نفسه مادى أيضا ، هو إما نفع مادى أو ضر مادى . وقد — العالم الألمانى — فى كتابه علم النفس للشعوب يذكر أن الصدفة وحدها هى السبيل الأول لتعيين الآلهة فى الديانات الوثنية . على معنى أن — حادثا ما يقع صدفة للفرد أو الجماعة من الناس فى مكان معين او عند شيء معين فيصبح هـذا الحادث السبب فى عبادة الفرد أو الجماعة لذلك المكان المعين أو لهذا الشيء المعين ، إما ترقبا لمنفعة منه أو طلبا لدفع مشقة تصدر عنه ، على حسب نوع الحادث الذى وقع :

فالصحراء كانت تعبد عند قدماء المصريين رجاء أن تدفع عنهم غضبها ، وهو تلك الأتربة التى كانت تثيرها العواصف فتتلف الزرع أو تتلف الضرع . و « النيل » كان يقدس منهم كذلك حتى لا يتخلف عنهم خيره من ماء وطمى . والصدفة وحدها هى التى جعلت من قدماء المصريين عبادا للصحراء والنيل ، وهى أنهم استوطنوا هـذه الرقعة من العالم فارتبطوا فى حياتهم المادية بهما . بدليل أن غيرهم من الشعوب القديمة ممن سكنوا بقاعا أخرى — فى آسيا مثلا — لم يعرفوا عبادة النيل والصحراء ، ذلك لأن حياتهم المادية لم ترتبط بهما يوما من الأيام

وعلى نحو ما رأينا من عدم الاعتدال فى وجدان الطفل يسيطر على وجدان البدائى طابع الغلو والتطرف كذلك : هو كثير القهقهة إن سر بشيء ما ، كثير النواح والصياح إن تألم من شيء ما . إن أقبل فى غير احتياط ، وإن ولى فى غير احتياط أيضا . كثير الشكوى قليل الصبر على ما يؤلمه ، كثير الزهو قليل الاتزان فى نشوة فرحه .

لكن الاسلام لم ير الحياة ذات لون مادى فقط ؛ بل جعل أسمى نوع من المتعة واللذة فى رضا الله ، وأقسى نوع من العقاب فى غضبه .

---

(١) « الله أنزل الحديث كتابا متشابها مثانى تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله ... » سورة الزمر آية ٢٢ .

الأسلام عاب الذين يشترون الحياة الدنيا بالآخرة ، ولم ير البر فى أن تتجه الوجوه قبل المشرق والمغرب ولكن فيما وراء ذلك من الأيمان بالله واليوم الآخر ... إلى آخر ما جاء فى الآية الكريمة : « ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفى الرقاب وأقام الصلاة ...

ورسول الله محمد بن عبد الله عليه السلام كان إذا ضحك ابتسم ولا يقهقه ، وإذا بكى — كما حصل عند دفنه لولده ابراهيم — دمعت عيناه فقط .

يطلب القرآن الكريم من المؤمنين عدم الجزع والهلع عند المصيبة بقوله : « يا أيها الذين آمنوا استعينوا بالصبر والصلاة إن الله مع الصابرين [1] » وفى قوله جل شأنه . « ولنبلونكم بشىء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات وبشر الصابرين الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون [2] » فجعل علامة الإيمان بالله — وهو دليل النضج الانسانى والبلوغ العقلى كما سنرى — الاعتدال فى الوجدان وعدم التطرف فيه إن فى حالة الألم أو فى حالة اللذة .

٣ — الصلة بالعالم الخارجى :

وإذا انتقلنا من دائرة الوجدان بعد الادراك فى حياة الانسان فى مرحلة طفولته الأولى إلى صلة هذا الانسان بالعالم وجدنا أنه يغلب عليه فى هذه الصلة طابع الذاتية والأنانية

فـ « أنا » ، هذه الذات ، هى الدافع لكفاحه فى هذا العالم وهى هدف هذا الكفاح فيه . يركز كفاحه فى الحصول على ما فى محيطه لنفسه فحسب ، ويحاول بأسلوب وبآخر أن يمنع الاشتراك فيما يحصل عليه ولو كان مع من هو مصدر الأعطاء من أب أو أم مثلا .

ولأنه لا يستطيع أن يدرك غير هذا العالم الحس فأهدافه التى يحاول أن يبلغها فيه لا تتجاوز ما يحس منه كذلك . لا يسعى إلى تحصيل المال الرفيعة ؛ لا يسعى إلى تحصيل الفضيلة والقيم الاخلاقية . لا يسعى إلى التضحية فى سبيل الغير لأنه لم يعترف بالغير بعد . لا يسعى إلى أداء الواجب نحو الجماعة لأنه لم يدرك معنى الجماعة الآن . لا يعرف معنى الزهد ، فضلا عن أن يسعى لتحقيقه . قد يعاف الشىء ولكن لا يزهد فيه .

والأمر الآن إن البدائى الطفل فى هذه المرحلة الأولى من مراحل تطوره . لا يعرف البدائى أيضا حدودا لمطالب نفسه ، ولا دافعا فى الحياة غير ذاته ، ذاته كل شىء ، وكل شىء فى الوجود هو لذاته . إن عبد فلما يعود على ذاته الخاصة من نفع أو اتقاء لما يقع عليها من ضرر . وإن حارب فللغنيمة ، وإن هرب من الحرب فلا نقاذ حياته . وإن صادق أو عادى فلمنفعة فى المصادقة أو المعاداة .

لا يعرف معنى الوطن فيفديه بالنزول عن بعض ما يملك أو بأجهاد نفسه فى سبيله . وما دام لم يعرف الوطن أو الجماعة فتركيز كفاحه لتحقيق مطالبه الخاصة لا ينشأ عن أختيار منه ، حتى كأنه آثر نفسه على وطنه أو جماعته عندما تراه يكافح لذاته فقط ؛ بل ذلك عن غير إرادة منه بدافع اضطرارى من ذاته . إذ الاختيار إنما يكون عند الموازنة ، والموازنة لا تكون إلا بعد إدراك لشيئين فأكثر . كأن يدرك أن له ذاتا ، وأن هناك غيرها فى العالم من الجماعة أو الوطن ، وان هناك علاقة بين ذاته وبين هذا الغير تقوم على أداء واجبات نحو هذا الغير وأخذ حقوق من هذا الغير . ولكنه لم يدرك بعد أنه « منفصل » فى هذا العالم وفى بيئته ، إذ لم يزل يرى أن كل ما فى الكون هو ، وأن الكون لا يتعدى ذاته .

وعلى هذه الحقيقة النفسية عند البدائيين تقوم سياسة الغربيين المستعمرين فى عصرنا الحاضر . يلبون المطالب الشخصية للافراد ، ويقسمون الرقعة الضيقة الواحدة إلى سلطنات أو إمارات وولايات ، ويساعدون رؤساء الأمارات أو السلاطين على تحقيق رغباتهم التى لا تنتهى ولو كانت عبئاً على الصالح العام ، وينمون فى ذواتهم وأشخاصهم معنى الزهو والخيلاء بما يضمونه تحت تصرفهم من

---

(١) سورة البقرة آية ١٥٣ (٢) سورة البقرة: ٢٢ ، ٣٤

مفاتن هذه الحياة . حتى لكأنهم لا يسمعون من الواحد منهم إلا ترديده : أنا ! أنا ! أنا ! في كبرياء أجوف تجاه الوطنيين فقط .

وعن هذا الطريق السهل الذي لا يكلفهم شيئا يأخذون ما ينفق فيه المستعمر عرقه أو ما تزهق في سبيله نفسه من غلات الحاصلات الزراعية والمادن المستخرجة من أرض الوطنيين المستعمرين.

لكن الإسلام نادى بمراعاة الجماعة وجعلها في المرتبة الأولى إذا تعارضت مع مصلحة الفرد . فرض على الفرد واجبات نحو نفسه ونحو جماعته ، وجعل مبدأ : « أن لا ضرر ولا ضرار » شعاراً لتعرف هذه الواجبات . بل أكثر من ذلك بالحرص على الجماعة ورعايتها رغب المؤمنين في أن يضحوا بما لهم من نفس ومال وولد في «سبيل الله». وليس سبيل الله إلا إعزاز الجماعة. إذ القربى إلى الله هي المشاركة في إسعاد الغير عن طريق تخفيف آلامه واطمئنان نفسه : فالنصيحة للغير قربى، وبذل المال له قربى ، ودفع الضرر عنه قربى ، وستر عرضه قربى ، والقول المعروف قربى ، والتسرية عن نفسه قربى .. وهكذا . وكلما تعاون الفرد مع الفرد ورأى أن من وجوده وكيانه وجود الآخر واستقراره تقوت الجماعة، إذ أنها حينئذ تكون كالبنيان الذي يشد بعضه بعضاً .

الإسلام نصح بالزهد في هذه الحياة . وليس الزهد إلا وضع حد بين مطالب الذات ومطالب الغير. ليس إلا وضع نهاية لرغبات الذات . ولذلك كان كفاحاً لتلك الرغبات. هو كفاح رجعي يتجه نحو الذات نفسها بعد أن طغت مطامعها وزاد جشعها في عهد الطفولة الإنسانية ، وقد يمتد أجلها سنوات في حياة الإنسان .

وإن شئنا قلنا إن الزهد هو تحويل الكفاح في الإنسان من الدائرة الانفرادية أو الأنانية الأولى إلى الدائرة الجماعية . ليس الزهد عبارة عن موقف سلبي في الحياة وتعطيلاً لقوة الكفاح والسعي في الإنسان ، فقد كان محمد بن عبد الله زاهداً وكان مع ذلك في مقدمة المكافحين .

٤ — السلوك :

وإذا تركنا هذه الظاهرة النفسية التي ذكرناها الآن كإحدى ظواهر الطفولة الأولى للانسان إلى الحديث عن سلوكه في هذه المرحلة وجدنا طابع الوقتية من جهة والتقليد من جهة أخرى يسيطران على هذا السلوك :

(ا) ينتقل الطفل في هذه المرحلة بسرعة من حال إلى آخر . لا يلبث تمسكه بالشيء طويلا ولا يبقى إعجابه فترة زمنية واضحة ، كما لا يستمر تألمه من الحرمان وبكاؤه على فقد الشيء طويلا كذلك . يقبل البدل والعوض في يسر وفي سرعة لكن بشرط أن يكون هذا العوض أكثر إغراء له بكبر حجمه أو بكثرة لمعانه أو بشدة تفاوته في اختلاط الألوان الزاهية ، وإن كان ضعيف القيمة أو قليل الجودة .

لذا ينعدم الايمان بشيء هنا في هذه المرحلة . وبالتالي لا يوجد كفاح من أجل العقيدة أو المبدأ . إذ مأخوذ في طبيعة الايمان أنه ليس التصديق فحسب ، بل الاستمرار فيما يصدق به الانسان. وتختلف درجات المؤمنين لذلك حسب تفاوتهم في هذا الاستمرار لا حسب التصديق والاقرار .

الثبات على الشيء أو على المبدأ ميزة الرشيد من الانسان . والتحول عن الشيء ميزة الطفل في طفولته الأولى أو ذلك الانسان البدائي ، وهو ذلك الذي لم تكتمل إنسانيته بعد. . .

سبب ذلك أن العالم مشحون بالمحسات أو الماديات والطفل مرتبط بما هو مادي محس أيما ارتباط لا يستطيع الانفكاك عنه إلى الآن . فهذه المادية اللانهائية للعالم لا تخلو من مغريات كثيرة تشغله في صحوته ويقظته ، وهو منجذب نحو آحادها لا يلبث عند واحد منها إلا بمقدار ما يجذبه الآخر .

أما الرشيد فقد استطاع أن يقف على قدميه في هذا العالم يتخير منه ما يريد . إن أقبل على شيء ما أو أدبر عن شيء ما فعن إدراك فتصميم . لاختياره سبب وعلة . فهو يقف عند ما اختار ، مادام سبب الاختيار قائما في نفسه . وقلما يتغير السبب إذا كان عن تفتيش وروية — شأن من بلغ بلوغاً عقليا — .

(ب) كذلك يخضع الطفل في سلوكه لعامل التقليد : يخالف اتجاهه السابق في السير تقليدا لمن هو أكبر منه . لا يستطيع الاجابة عن سر تحوله سوى أن فلانا — الأب أو خلافه — هكذا صنع :

والبدائى لا يختلف عنه فى سلوكه : يتميز بكثرة التحول والتنقل ، ثم باتباع التقليد فيه . لا يطول عجبه ولا تطول صداقته وزمالته . لا يستمر حزنه وبكاؤه ، يضحك ومازالت الدموع فى مقلته أو على خده . صديقه بالأمس عدوه اليوم .

يأتى من التصرفات ما يناقض بعضه بعضا . ولو فتشنا فى سبب تناقضه وجدناه التقليد فيما أتى به .

وما علانا به سلوك الطفل هناك هو ما نعلل به سلوك البدائى هنا . كلاهما فى هذا العالم كمن وقف فى مهب الريح ، يدفع فى سيره دون أن يستطيع اختيار اتجاه معين . إن بدأ فى السير لا يعرف متى يقف ؟ وأين يكون

والاسلام إن قام على دعائم فالايمان أولها فى نظره . لا لأنه أساس يتفرع عليه غيره من مبادىء أخرى ؛ بل لأنه فى الواقع الفيصل فى الحياة الانسانية . هو أمارة على انتقال الانسان من مرحلة أدنى إلى أخرى أرقى منها فى تطوره .

لم يبن الاسلام على المؤمنين به وحده لايمانهم ؛ بل احترم كذلك أهل الكتاب ممن لم يحرفوا الكلم عن مواضعه . أما غير أهل الكتاب من الوثنيين ، أما أهل الكتاب الذين يدلوا دين الله فهم أمامه سواء فى عدم انتقالهم من حال الطفولة الانسانية إلى حال الاكتمال والرشد الأنسانى . لا يحق لهم إذن عهد ولا ذمة .

الاسلام إن شاد بالايمان فاشادته بذلك الايمان الذى جاء نتيجة الروية واستقلال الفكر ووليد النظرة الحرة ، لا ذلك الذى أساسه التقليد . « إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله أولئك هم الصادقون » (١) . يريد من الايمان ذلك الذى هو عنوان الرشد الانسانى .

أما الاقرار نتيجة التقليد فهو بالأحرى أمارة الطفولة ، لا يلبث صاحبه أن ينتقل مما أقر به أولا إلى الاقرار بشىء آخر تدفعه إليه مغريات العالم ومفاتنه الظاهرة .. « وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا أولو كان آباؤهم لا يعقلون شيئا ولا يهتدون » (١) . أولئك هم البدائيون فى الانسانية ، هم أطفال ولو بلغوا الحلم .

٥ — الحكم والتقدير

ومما يتصل بهذا الجانب النفسى الذى عالجناه الآن — وهو السلوك الانسانى فى مرحلة الطفولة الأولى — جانب آخر له أهميته وهو طابع الحكم وأساس وزن قيم الأشياء عند الانسان فى هذه المرحلة أو من هو شبيه له .

(ا) يغلب على حكمه طابع التذبذب والتردد ، لأنه فى حكمه على الشىء يتبع ما يدركه من ظاهره وظاهر الشىء دائما متغير فى نظره : فبينما يقدر الشىء للونه إذا به ينفر منه لمذاقه . وبينما يقبل على والده أو أمه بالتقبيل — إن أخذ من أحدهما قطعة من الحلوى مثلا — إذا به يثب بالضرب على من يناديه منهما للنوم أو يدعوه للهدوء والسكينة .

هو لم يختبر بعد ما نال اعجابه أولا ثم نفر عنه ثانيا ليقف على شىء ثابت فيه ، وهو ماله من حقيقة وكنه حتى يكون الحكم عليه مرتبطا بماله من هذه الحقيقة . ولم يعرف بعد أيضا فى أبيه معنى الأبوة وفى أمه معنى الأمومة حتى يربط تقديره لأحدهما بذلك المعنى الباقى فيه .

(ب) ولم يستوف فى وزنه للشىء عناصر التقويم فيه ، إذ الجزء للشىء يعبر عن نفس الشىء فى تصوره وإدراكه — كما ذكرنا ذلك أولا — .

فتقويمه إذن للشىء تقويم لجزئه ، وبجزء تأثر به هو ، وقد لا يكون من مقومات ذات الشىء : فكراهيته لأنسان لأنه أدرك فيه مغايرة البشرة لما ألف رؤيته من الناس ، وحبه لانسان لأنه أعطاه ما يهواه لا يتصل ذلك بتقويم الانسان بما هو به إنسان .

هنا تتقدم الثقة العامة بأحكامه وتقديراته ، لأن أساسها متغير وسريع فى تغيره كذلك .

---

١) سورة الحجرات آيه ١٥ .

١) سورة البقرة آيه ١٧٠